
كيف تُشكّل الجماعات فضاءاتها الثقافية؟

(قراءة في حكايات المرّيين)

د. أحمد بهي الدين العسّاسي

كلية الآداب- جامعة حلوان



كيف تُشكّل الجماعات فضاءاتها الثقافية؟

قراءة في حكايات المريدين

د. أحمد بهي الدين العساسي

وراء كل زيارة حكاية:

يتطلب استبطان وظائف التقاليد الشفاهية وحدودها النوعية توثيقها في سياقات أدائها الحية، فالنوع الواحد يتخذ في كل سياق وظائف جديدة؛ لأن غايات السياقات متنوعة. كما أن مقدرة التقاليد الشفاهية على الاستمرارية تحتم عليها التحور والتجدد مع التزام الأصالة والعراقة.

نروم هنا التعرف على المرويات الشفاهية ووظائفها في سياق الاحتفال الديني التقليدي (المُؤلِد)؛ إذ تعد الاحتفالات الدينية المصرية التقليدية "الموَالِد" سياقاً حاضناً لكثير من الممارسات التقليدية بما تحمله من فنون قولية وأدائية، وعمارة تقليدية، وموسيقى، وحرف تقليدية، وعادات ومعارف، فهي تضم عناصر التراث الثقافي غير المادي "الفولكلور" كافة. كما تمور، سواء أكانت مرتبطة بالأولياء أم القديسين، بحشود من المريدين الذين يحرصون على حضور الاحتفال والمشاركة في طقوسه، تحركهم دوافع شتى، منها الاعتقاد في كرامة حدثت أو التبرك، أو التطهر، أو الحب إضافة إلى الكثير من الدوافع التي تحقق لأصحابها ما يصبون إليه من تعزيز وجودهم في حياتهم التي يحيونها.

وإذا أنعمنا النظر فيما يكمن وراء مقاصد المريدين وغاياتهم أثناء ممارسة طقوس الاحتفال والمشاركة فيه سنجد أن ثمة مرويات سردية شفاهية، توارثوها جيلاً عن

جيل، تشكل بالنسبة لهم عين تاريخهم الشفاهي وجزءاً من معتقدتهم التقليدي. وهذه المرويات يمكن أن تصنف أنها حكايات شعبية طقسية، سواء أكانت مرتبطة بالولي، الذي يقام الاحتفال من أجله، أم القديس وما يتعلق به من كرامات وسيرة حياة، أم بفضاء المقام والاحتفال. ومن ثم فكل حكاية تشكل دافع زيارة المريدين للفضاء المكاني الذي يحلون فترة زيارتهم. ويمتد أثر المرويات السردية هذه ليكسب الفضاء الذي يقام عليه الاحتفال طابعاً ثقافياً يُعرف به في وجدان الجماعة التقليدية التي تقطنه أو تتغيا زيارته. فيضم إلى جانب وجوده الفيزيقي دلالات الهوية والخصوصية الثقافية والتنوع الثقافي مما يرسخ وجوده باعتباره فضاءً ثقافياً.

تتميز الحكاية الشعبية التي تحرك المريدين بأنها لا تُؤدى شفاهة، كما هو حال صنوف الحكى الشعبي بعامة والحكاية الشعبية بخاصة، الذي يمتلك راوياً وملتقياً ونصاً وسياًقاً، ويجب على راويه أن يكون محترفاً للرواية عليمًا بقوانينها، كما أنها تنتقل من شخص إلى آخر بحرية، ولا يزعم أحد أن الفضل يعود إليه وحده في أصلاتها، ويكون هذا الانتقال في الغالب الأعم عن طريق الرواية الشفاهية، فهي تسمع وتردد بقدر ما تسعف ذاكرة الراوي، وقد يحكيها كما سمعها، وقد يضيف إليها من عنده^(٢). بيد أن المرويات السردية المرتبطة بتشكيل الفضاء الثقافي والكامنة وراء طقوس المريدين في احتفالاتهم تنفك عن هذا التقنين فتتفرد بكونها تمارس محاكاة لا رواية شفاهية، ويُعاد إنتاجها في أوقات طقسية معلومة، تؤديها الجماعة مجتمعة، ولكل فرد دور منوط به القيام به، فالجماعة مجتمعة هي الراوي، وينضوي تحت مصطلح الراوي أيضاً جمهور المشاركين في الطقس؛ إذ إن ممارستها يراد منها ترسيخ هويتهم ومعتقدهم وتأكيد خصوصيتهم الثقافية، التي هي جزء من ثقافة أوسع تتصهر فيها تنوعات ثقافية متميزة، ففي كل مرة يمارسونها يتعرفون على أنفسهم ويعرفون الآخرين بهم، مما يعزز بقاءهم ويقوي مكانتهم المجتمعية. هذه هي الرؤية التي سوف تبنى عليها رؤيتنا لدور الحكاية الشعبية في خلق الفضاءات الثقافية وتشكيل الهوية وتعزيز البقاء. ومن ثم يتحول أداؤها إلى طقس ينخرط فيه أفراد

الجماعة، يعرف كل فرد دوره فيه، وهنا يمكن لهذه الحكاية أن تكون بمثابة الذاكرة الجمعية.

نهضت الحكاية الشعبية على تنوع مضامينها بالكثير من الوظائف وأنساق القيم والعادات التي ارتضتها الجماعات التقليدية، واتخذت من طرائق السرد التقليدية وسيلة لنقل معارفها وترسيخها في نفوس الأجيال، أيضاً كان للحكاية الشعبية دور لافت في معالجة الكثير من القضايا المعاشة التي شغلت وجدان الجماعة التقليدية فوفرت متنفساً آمناً نوقشت فيه دون تصريح، فقد حُكيت جل الأحداث الجسام في قوالب مرحة وعجيبة وخرافية، وكانت الرسالة فيها واضحة على الرغم من مظاهرها الهزلية.

تضاف إلى وظائف الحكاية الشعبية، القارة والمعلومة، وظيفة أخرى هي مهمتها في تشكيل الفضاءات تشكيلاً ثقافياً. وسنقوم هنا بتسليط الضوء على الحكايات الشعبية المرتبطة بالأولياء والقديسين، وتتداول غالباً في الاحتفالات التقليدية المرتبطة بهم (الموالد)، مختصة السرديات الشفاهية المرتبطة بأبي الحجاج الأقصري، أحد الأولياء في صعيد مصر، بالدراسة بوصفها نموذجاً دالاً على مقدرة السرديات الشفاهية بعامه والحكاية الشعبية بخاصة على تشكيل الجغرافيا الثقافية للجماعة التي تتناقلها، إضافة إلى ترسيخها فضاءات ثقافية لها تحمل قدرًا من الثبات المكاني، الذي يحمل دلالات ثقافية لها من الحيوية والاستمرارية ما لعناصر التراث الثقافي غير المادي الممارس في نطاقها.

تحمل هذه الحكايات مضامين ووظائف كثيرة، إضافة إلى كونها تمنح المشاركين في الاحتفال مرجعية وجودهم باعتبارهم عنصرًا رئيسًا في الاحتفال، وتُشرعن أدوارهم التي يمارسونها فيه. كما تضي على الرقعة المكانية بعداً ثقافياً ربما يكون أشد تأثيراً من الذي منحه الجغرافيا الرسمية له باعتباره مكاناً فيزيقياً فحسب، إذ إن مداومة المريدين (المشاركين في الاحتفال) على ممارسة الحكاية الشعبية وإعادة إنتاجها أثناء شدهم الرحال إلى الاحتفال يكسب الفضاءات التي

يمرون بها وصولاً إلى مُرامهم الذي يقيمون به تأويلات واستعمالات ثقافية تنبؤ عن المعتاد الثابت والرسمي أيضاً، من ثم فهي تتعالق في إحدى غاياتها مع الجغرافيا الثقافية التي تُعنى بتنوع وتعدد الحياة بكل غناها المرقش، بطريقة الناس في تأويل واستعمال العالم والأفضية والأماكن ثم بالكيفية التي تساعد بها تلك الأماكن الناس على تخليد تلك الثقافة^(٣).

ثمة سَعِيّ هنا إلى النظر إلى الحكاية الشعبية بوصفها إحدى المشكّلات الرئيسة للجغرافيا الثقافية المعتمدة لدي الجماعات المحلية التي تقطن رقعة مكانية لها خصوصيتها الثقافية المتأتية من ممارسات وعادات وتقاليد وطقوس، قد تكون ظاهرة أو متوارية تتطلب استبطاناً وقدراً من التأويل، وهذا ما يكمن في سرديات الطقوس بعامة، والاحتفالات المصرية (الموالد) بخاصة؛ إذ إن السرديات المرتبطة بها والمشكلة للفضاء الثقافي تتطلب اتساعاً في شبكة التأويلات التي تربط بين المرويات والحكاية الشعبية بوصفها نوعاً أدبياً مقنناً، والفضاءات الثقافية بوصفها الفضاء المادي.

التأسيس الاصطلاحي

لقد استقر البحث على تصنيف الحكايات الشعبية التي تحرك عناصر الاحتفال، وتدفع الزائرين إلى المشاركة فيه أنها "حكايات المريدين"، فالحكايات هنا إشارة إلى السرديات الشفاهية المرتبطة بالطقوس التي يحملها رواد المولد وزائروه ولا يفصحون عنها بالضرورة لغيرهم، لكنها تشكل ذاكرتهم الجمعية، وربما حرصوا على إبقائها (وفق اعتقادهم) قيد الكتمان قولاً حتى لا ينكشف سرهم فيذهب سترهم، وإن كانوا يفصحون عنها ممارسة طقسية في إعادة إنتاج صريح للحكاية. وهذه الحكايات لا تعد خرافية، فهي تتأى عن سمات الخرافة، وإنما يمكنها التواشج مع الحكايات العجيبة. فهي تتعلق بعوالم عجيبة تمثل عين العالم الحقيقي المعاش لرواتها؛ حيث إنها تروى باعتبارها تاريخاً حقيقياً يمتلك من المصدقية في ضمائرهم ما ليس للتاريخ

الرسمي. وبالتالي فإن النظر إلى هذا النوع من السرديات التقليدية يتطلب قدرًا من الحذر والوعي عند توثيقه وتحليله.

أما المريدون هنا فهي مجلوبة من الاصطلاح الصوفي، فالمريد عند المتصوفة هو من "أراد الوصول إلى معرفة الحق أو الحضرة الإلهية، وأنه يحزر هذه الإرادة من نفسه بتسليمها، لذلك المريد اسم فاعل، وتسليم الإرادة: تقنية الوصول إلى الله"^(٤). وفكرة الوصول إلى الله كامنة في ممارستهم للحكاية، إلى جوار هدفهم الرئيس وهو إعادة إنتاج تاريخهم الخاص الذي تحققه الحكاية ويتجلى احتفالياً في المولد. ومن ثم فهم أصحاب مراد وغاية.

تكمّن علاقة حكايات المريدين بالفضاءات الثقافية في "الكيفية التي يفهم بها كل مجتمع أو منطقة ويشيد فضاءاته ويديرها"^(٥)، فالوقوف على الدلالات التي تحملها الحكايات الشعبية بعامة، والمرتبطة بالأماكن والشخصيات ذوي التقدير لدى الجماعة المحلية بخاصة، يؤكد أن ثمة دلالات استعارية للفضاءات ذات حضور بجانب الدلالات الفيزيقية، وكل جماعة تحتاج إلى فضاءها الخاص وتسعى إلى تأطيره.

تشكل حكايات المريدين إحدى حلقات السيرة الشعبية للأولياء، إذ يمكننا الحصول على سيرة للولي من خلال نصوص الحكايات التي تدور حوله، سواء كانت متعلقة بسيرته الذاتية أم بكراماته. فكل حكاية تعد وحدة قصصية في ذاتها. وليس من الضروري أن يلم كل مريد بالحكايات المرتبطة بالولي كلها أو بعضها. إنما يكفي أن تكون لديه حكايته الخاصة التي تحرك دوافعه نحو زيارة الولي والمشاركة في فضاء الاحتفال به.

ولقد تم اختيار مُولد أبي الحجاج الأقصري الذي يقام بمدينة الأقصر باعتباره نموذجاً دالاً على فعالية الحكاية الشعبية في تشكيل الفضاءات الثقافية وخلقها، إذ يحاط هذا الطقس الاحتفالي بمرويات سردية متنوعة ومتداخلة في آن، وكلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطقوس الاحتفال وتراتبها. ويتطلب فهم هذا الأمر توثيق الاحتفال مرات

متنوعة من أجل الوقوف على بنياته الكبرى والصغرى، وتقصي ماهية كل طقس وفق تصور الجماعة التقليدية التي تقوم على رعايته وممارسته. إذ يبدو للرأي منذ الوهلة الأولى أن هذا الاحتفال لا يختلف عن غيره من الموالد المصرية سوى أن عائلة بعينها تقوم به وترعاه يشاركها أهالي الأقصر. ويتبدد هذا التصور عند التوثيق الدقيق للاحتفال نفسه مرات متعددة.

ثمة حكايتان رئيستان تقومان بهيكل سيرة أبي الحجاج، أحدها تروى في قوص ويخرج منها وحدات حكاية فرعية، والثانية تُروى في الأقصر. وبوضع هاتين الحكايتين التي يرويها ويعيد إنتاجهما المريدون مشيدين بذلك أفضية ثقافية تظهر لنا سيرة الولي أبي الحجاج كما تستقر في نفوس مريديه.

وتعد الجغرافيا الثقافية المنظور المنهجي الذي يسهم في الكشف عن المعاني والرموز والدلالات التي تحملها حكايات المريدين في فضائهم أثناء ممارسة طقوسهم الاحتفالية، لأن الجغرافيا الثقافية تدرس "موقع واختلاف مكان الثقافات، إنها رؤية الشعوب والقبائل كما ترددها مجلات الجغرافي القومي، وقصص الرحلات... كما أنها تمحور حول الكيفية التي تعيش فيها الثقافات المختلفة في مناطق الكرة الأرضية... وتهتم الجغرافيا الثقافية بطريقة تجمع عمليات مختلفة في أماكن خاصة، وطريقة تلك الأماكن في تطوير المعاني للناس"^(٦)

السرديات الشفاهية وحكايات المريدين

ثمة سرديات شفاهية كثيرة تتعلق بأبي الحجاج الأقصري، شأنه في ذلك شأن الأولياء والقديسين، وجلها مرتبط بمناقبه وكراماته، وهذه السرديات تُروى من لدن المريدين باعتبارها تاريخًا شفاهيًا حقيقيًا، ومن ثم فإنهم يذودون عنها؛ لأنها كما أسلفت تمثل وجودهم وعالمهم.

قد لا يرد ذكر هذه السرديات في تاريخ أبي الحجاج الأقصري المدون، وما يوجد منها في يختلف في كثير من تفاصيله عنها. ولقد قمت بتوثيق عدد من السرديات المرتبطة بأبي الحجاج الأقصري أثناء الاحتفال بمولده، بيد أنني سلطت الضوء على حكايتين رئيسيتين تقترنان ببناء الطقس (المولد) وتشكيله وممارسته، أولهما: حكاية قوص، ويرويها نفر من أهل قوص الذين اعتادوا سنويًا الاحتفال بأبي الحجاج، والثانية: حكاية الأ قصر التي تروي عليها والتمكن منها، وهي متواترة بين أبناء الأ قصر بعامة والعائلة الحجاجية بخاصة، التي تقوم بدور رئيس في الاحتفال وذلك لكون أبي الحجاج جدهم.

أولاً: حكاية قوص

تقدم الجماعة الشعبية في قوص رواية حول أبي الحجاج ورحلته إلى مستقره بالأقصر. يروي جماعة من أهل مدينة قوص أن "أبا الحجاج عندما قدم إلى جنوب مصر أقام بمدينة قوص، وكان بها ولي يسمى أبو العباس المثلث، وأطلق عليه المثلث لأنه عندما علم بمقدم أبي الحجاج ثلث، لأنه كان يكبره سنًا وفي عرف الأولياء لا يقيم وليان في مكان واحد، وعلى أصغرهم سنًا أن يترك المكان، ولأن الولي المثلث يعرف قدر أبي الحجاج، أصرَّ على أن يخفي ملامحه عن أبي الحجاج، حتى لا يظهر اشتعال الشيب برأسه، وبالفعل تم له ما أراد فأقام أبو الحجاج بقوص، وكان أحمد المثلث يقوم على خدمته... وذات مرة وهو يصب عليه ليتوضأ وقع اللثام فبان لأبي الحجاج حقيقته، وهنا أصر أبو الحجاج على مغادرة قوص متجهًا إلى الأقصر.

امتطى أبو الحجاج ناقته وتوجه صوب الأقصر، وكان ذلك بعد صلاة الفجر، وعندما مر على آخر بيت بقوص خرج أهله له فقدموا له طعام الإفطار من لبن وأرز، ثم اتخذ طريقه فمرَّ على قرى: حجازة قبلي، والسبع عيون والمفرجية، حتى يصل إلى قرية العياشة، فيتم استقباله في ساحة أبي بكر ويقدم له الشاي، وبعد أن أخذ قسطًا من الراحة واصل رحلته، إلى أن حط على قرية العقب، ولما علم أهلها

بمقدمه خرجوا لاستقباله رجالاً ونساءً وأطفالاً، فأكرموا وفادته هو وناقته، وقدموا له الملوخية والخبز، وأصروا أن يدخل أبو الحجاج بيوت قريتهم حتى تتال البركة. وفي كل مكان كان ينتقل إليه أبو الحجاج كان يتقدمه رجل يقرع الطبل إيذاناً بمقدمه^(٧) تنتهي الحكاية بالنسبة لأهل قوص عند دخول أبي الحجاج إلى الأقصر.

لافت أن هذه الحكاية غير منتشرة في الأقصر، ولا يعرفها إلا القليل من أبناء الأقصر الذين يقومون بدعوة هذه الجماعة من قوص للمشاركة في الاحتفال. وتسمى هذه الجماعة بـ "المزمزين". وهم جزء رئيس في طقوس الاحتفال بمولد أبي الحجاج الأقصري. تعد هذه الحكاية بالنسبة لهذه الجماعة جزءاً رئيساً من تاريخ مدينتهم الشفاهي، وهي عنصر من عناصر كثيرة تشكل الموروث الثقافي لمدينة قوص.

لا ترد هذه الحكاية في المدونات الرسمية التي تحدثت عن قوص وأوليائها، وتورد الذهنية التقليدية عددًا من المرويات السردية حول دور أبي الحجاج (ت ٦٤٢هـ) في مدينة قوص وسب تسميته بأبي الحجاج، من هذه المرويات "أنه عرف بأبي الحجاج لأنه كان في موسم الحج من كل عام يتواجد هو وأتباعه ومريدوه في مدينة قوص، التي كانت عاصمة صعيد مصر في ذلك الوقت وطريقاً آمناً وسهلاً للحج، وبصفة خاصة بالنسبة للحجاج المغاربة الذين يفدون إلى صعيد مصر عن طريق الصحراء الغربية قادمين من بلاد المغرب، ويمكنون في مدينة قوص هذه بضعة أيام وليال ثم يتركونها إلى الصحراء الشرقية؛ حيث يصلون إلى ميناء كان يسمى في العصور الوسطى بميناء عيذاب يقع على ساحل البحر الأحمر الذي كان يعرف في ذلك الوقت ببحر القلزم، ومن هذا الميناء يركبون المراكب العيذايية إلى ميناء جدة ثم ينطلقون إلى الأراضي المقدسة... كان يستقبل هؤلاء الحجاج المغاربة، ويسهر هو ومريدوه على راحتهم وتقديم الطعام والشراب لهم في حفاوة بالغة وكانوا يقولون إن الطعام والشراب الذي كان يقدمه أبو الحجاج لهؤلاء الحجاج يباركه الله، فكان أقل القليل منه يطعم ويسقي الآلاف من هؤلاء الحجاج دون أن ينفد^(٨)

أما أبو العباس الملقب فقد ذكره "جان كلود جارسان" في كتابه "ازهار وانهار حاضرة مصرية: قوص" بأنه (ولي قوص)، وأنه "عاش حتى عام ٦٧٢ / ١٢٧٣... ولقد جاء أبو العباس من الحجاز... ويبين من اسمه أنه كان يخفي وجهه (كان يرتدي اللثام)، ولا مرأ في أن هذا المظهر غير العادي كان مدعاة لإضفاء خصال غير عادية عليه، وقد كان عليه أن يكذب ذلك؛ إلا أنه كان ينسب إلى ولي المدينة التجارية هذه القدرة على معرفة مصير القوافل المتجهة إلى عيذاب ومصير السفن التي تمخر عباب البحر الأحمر"^(٩) لقد عاش الوليان: أبو الحجاج الأقصري، وأبو العباس الملقب في فترة زمنية واحدة، وقد وثقت الذاكرة التقليدية ما جرى بينهما في الحكاية التقليدية السابقة، وربما ثمة مزيد من الحكايات لم توثق بعض، ولافت أن المدونات الرسمية لم تعرج إلى هذه العلاقة، وقد أوردت ما ذكره جارسان على سبيل الاستشهاد في هذا الصدد، فليس شرطاً أن يرتبط التاريخ الشفاهي بمرويّاته التقليدية بالتاريخ الرسمي، وإنما أبين هنا ثراء المخيلة التقليدية وإبداعاتها.

ثانياً: حكاية الأقصر

تتسبب حكاية سيطرة أبي الحجاج على الأقصر المرويّات التقليدية المرتبطة بالأقصر وأبي الحجاج، وقد وثقت هذه المروية غير مرة من أناس متنوعين من أهل الأقصر وزائري أبي الحجاج، تتلخص هذه المروية في الآتي: "لما قدم أبو الحجاج إلى الأقصر أتياً من قوص دخلها من ناحية الشمال، كانت تحكم الأقصر في ذلك الوقت راهبة مسيحية تدعى الملكة تريزة، وعندما علمت بمقدمه خشيت على سلطانها لما كانت تعرفه من أخباره وكراماته، فلما حلّ بالأقصر، استقبلته وقالت له إنه لن يأخذ من الأقصر سوى مقدار جلد جملة. فذبح أبو الحجاج جملة ليلاً وأخذ جلد جملة قدراً رفيعاً على هيئة خيوط، طوق المدينة كلها بخيوط جلد جملة من الشمال إلى اليمين، وهكذا تمكن أبو الحجاج من السيطرة على الأقصر، وأعجبت الملكة به، وأعلنت إسلامها، وتزوجها أبو الحجاج، وذلك في منتصف شهر شعبان، وبنى

مسجده على دبرها الذي كان مشيداً على هيكل معبد الأقصر، ومازال المسجد قائماً حتى الآن^(١٠) لقد أجمع أهل الأقصر وزائرو أبي الحجاج على هذه الحكاية، ويعتبرونها عين تاريخ مدينتهم، ومن أبرز الجماعات التقليدية على تواتر هذه الحكاية وروايتها أحفاد أبي الحجاجي الذين يقومون على رعاية الاحتفال بمولد أبي الحجاج كل عام^(١١) تعد هذه الحكاية التقليدية تاريخاً شفاهياً يتكئ عليه أهل الأقصر في الحديث عن مدينتهم، وبخاصة أن الاحتفال بولد أبي الحجاج يعد أشهر احتفالية تقام وأكبرها. كما أن موضع مسجده البارز الذي شيد على هيكل معبد الأقصر هو أيضاً علامة بارزة في المدينة.

تعد حكاية سيطرة أبي الحجاج على الأقصر من السرديات التقليدية الشهيرة التي تجري على السنة الجماعة التقليدية في الأقصر وخارجها، وكذلك ترد في المدونات التي تتناول تاريخ أبي الحجاج كذلك بوصفها حكاية تقليدية. فالتاريخ الرسمي أولى عناية بدور أبي الحجاج الأقصري في رعاية الحجاج المغاربة الذين كانوا يمشون بقوص. وكذلك دوره في الدعوة بمدينة الأقصر.

الحكاية وتناسخ السيرة

يمثل أبو الحجاج في الحكايتين بطلاً شعبياً إضافة إلى كونه ولياً تعقد عليه الآمال. فهاتان الحكايتان تؤطران لسيرة شعبية ذات بنية صغرى، تتناسخ من البناء القصصي للسيرة الشعبية. فالبطل الرئيس ينبغي أن يرتحل، والرحلة هنا موتيف رئيس في القصص الشعبي بعامة والسيرة بخاصة، وفي كل مراحل ارتحال البطل يقدم على تحقيق بطولات/كرامات يخلد بها ذكره، تكون فارقة بالنسبة للجماعة التي ساعدها البطل، فثمة معايير قصصية تقليدية تربط بين الحكايات المروية حول أبي الحجاج والسيرة الشعبية، فإطار السيرة الرئيس هو رحلة أبو الحجاج حتى مكان المقام بالأقصر. يتناسخ من السيرة حكايتان ترويهما جماعتان تنتميان إلى منطقتين

مقاربتين، أحدهما من قوص والثانية من الأقصر، وكل حكاية تحوي عددًا من الحكايات الصغرى.

تتشرك هذه الحكايات مع السير الشعبية في أنها رسمت خريطة ثقافية لفضاءات موجودة بالفعل، تشهد قدرًا من التهميش الرسمي برغم ثرائها الثقافي، وهي قرى: حجازة قبلي، والسبع عيون والمفرجية والعياشة. فانتخدت هذه القرى بوصفها فضاءات ثقافية قيمة روحية لدن الجماعة التقليدية لأنها أسهمت في تشكيل تاريخ أبي الحجاج كما أسهم هو في إكسابها قيمة عبر مروره بها والحرص على إظهار بعض من كراماته فيها.

يتكئ البطل (أبو الحجاج) في المرويات السردية هنا على أساس ديني، فهو ولي صالح، قادر على فعل الكرامات بمؤازرة إلهية، كما أن وجوده فحسب في المكان يكسب المكان بركة ونفعًا، وهذا ما أكدته الحكاية. وهو يتشكل هنا كما يتشكل بطل السير الشعبية، الذي يساند بقوى إلهية في حله وترحاله، كما أنه يستخدم معرفته التي وهب إياها في تمكين الخير ودرء الشر.

تضفي المرويات التقليدية المرتبطة بأبي الحجاج الأقصري على مسجده بعدًا ثقافيًا، تساندها في ذلك ثقافة الأقصر وراثها باعتبارها مدينة مصرية قديمة لها خصوصيتها الثقافية التي ما تزال عناصرها حية تمارس منذ القدم حتى الآن. فالمسجد ليس دار عبادة أو ضريح للولي الصالح فحسب، بل هو نقطة ارتكاز امتلاك الأقصر، وبنيان أقيم على هياكل دينية انصهرت معبرة عن التنوع المرقش لمدينة الأقصر. فالأساس معبد الأقصر، شيدت عليه كنيسة (حسب الحكاية التقليدية)، ثم شُيد المسجد، حتى إنه لما تعرض المسجد لحريق عام ٢٠٠٧، اتضح هذا للعيان، إذ كانت أعمدة المسجد هي أعمدة المعبد الفرعوني. إن الحكايات الشعبية تؤكد دومًا على تنوع الأقصر الثقافي، كما تؤكد على قدمها وأصالتها في سردية لا تنفي أو تزيل عنصرًا ثقافيًا لحساب آخر.

ومن اللافت أن حكاية سيطرة أبي الحجاج على الأقصر تتناص مع عديد من حكايات شعبية عالمية نوه إلى واحدة منها فلاديمير بروب في مورفولوجيا الحكاية الخرافية، قوامها سيطرة البطل في الحكاية على مساحة من الأرض بواسطة جلد الثور بعد أن قدّه على خيوط رفيعة، ف"بطل الحكاية يؤذن له بالحصول على كل الأرض التي يستطيع أن يحيطها بجلد الثور، فيقطع الجلد إلى شرائح ويحيط أرضاً أكبر مما توقع الطرف المخدوع"^(١٢)

ممارسة الطقس: إعادة نتاج الحكاية وتشكيل الفضاء

أسهمت الحكايات التقليدية التي ترتبط بأبي الحجاج الأقصري في تشكيل منطقة جغرافية محددة المعالم (الأقصر) في نفوس قاطني الأقصر بخاصة وما يحيط بها من قرى ورد ذكرها بعامّة. كما أنها أسهمت بقدر في إكساب المسجد وساحته بعداً ثقافياً إضافة إلى قيمتهما المكانية. إذ رسخت الحكاية تواصل الثقافة المصرية برغم التنوعات الدينية التي شهدتها، فالمسجد وساحته يعدان امتداداً مكانياً للثقافة المصرية على تنوع عصورها. لقد كان للقيمة الرمزية التي رسختها الحكاية دور في تمسك الجماعة التقليدية في الأقصر بالمكان الذي عليه المسجد والضريح، فلقد رصدت خلال التوثيق الميداني لاحتفال مولد أبي الحجاج حكايات قديمة حول المحاولات التي أرادت نقل المسجد من مكانه لأنه بُني على هيكل المعبد المصري القديم، أصر خلالها أهل الأقصر على بقاء الضريح والمسجد في مكانها الأصلي. وعندما تم ترميم المسجد عام ٢٠٠٧، بعد حريق تعرض له كشفت أعمدته، التي هي أعمدة معبد الأقصر، وزاد الإصرار على بقاء المسجد والضريح في موضعهما.

وربما لو فتشنا عن الحكايات الكامنة في نفوس الجماعات التقليدية لاستطعنا التعرف على أفضية كثيرة لديها خلفيات ثقافية ومعرفية جديدة تضاف إلى معارفنا الرسمية عنها التي تبدو محدودة أحياناً في جانبها الثقافي والمعرفي.

لا تتقرد حكايات أبي الحجاج بتشكيلها للفضاء المكاني أو تأسيسها لتاريخ المدينة الشفاهي؛ إذ ثمة حكاية شعبية، تتاقت معها حكاية أبي الحجاج، ولها دور رئيس في تأسيس مملكة قرطاج، بيد أن البطل فيها امرأة وهي "أليسا" أو "أليسا"، ففقد كان لقرطاج أهمية تاريخية وجغرافية اكتسبتها بسبب كونها إحدى محطات الملاحة المهمة التي أقامها الفينيقيون الذين أتوا من صور. وبرغم الحقائق التاريخية التي ترصد تأسيس المدينة قديماً إلا أن ثمة حكاية شعبية تقترن بهذه الحقائق تدور حول دور أليسا أو أليسا التي يقال إنها أخت بيجماليون. والتي قلَّ أن نجد لهما وجوداً تاريخياً بارزاً مما يعزز كون الحكاية تنتمي إلى التقاليد الشفاهية. وقد وردت هذه الحكاية في جل المؤلفات التي تتناول قرطاج وتاريخها. ومنها تاريخ قرطاج الذي ذكر أن حكاية أليسا بدأت مع تولي "مثن" حكم مدينة صور خلفاً لجدّه "إيتوبعل" الذي كان قد استولى على عرش مدينة صور ٩٣٣ ق.م. والذي ترك ولدين هما أليسا وبيجماليون، ويقال إن أليسا حكمت المدينة خلفاً لوالدها، مما أثار حفيظة بيجماليون الذي أراد الانتقام منها وزجها كاهن المدينة فقتل زوجها بالفعل، مما دعاها إلى ترك المدينة هي وحاشيتها وجماعة من قومها، ومن هنا بدأت حكاية تأسيس قرطاج والاستيلاء عليها.

تركت أليسا المدينة فارة إلى قبرص التي كانت السيطرة الفينيقية تشملها بكاملها، ولا عجب إذا لاقى الفارون استقبالاً حسناً؛ لأن كبير كهنة الجزيرة كان يشاطر أليسا معتقداتها وآمالها. وقرر أن يرافقها مع جماعة من إلى منفاها، فأكدت له الملكة، اعترافاً بجميله، أن ذريته ستتمتع في المدينة الجديدة بالوظائف والامتيازات الكهنوتية. وأفاد الفارون من التوقف في قبرص، فضمنوا لمدينتهم سلالة من الكهنة وعدداً من الزوجات. فبينما كانت جماعات من الفتيات تغنين على شاطئ الجزيرة حسب تقليدي ديني، اختطفن لتسكن قرطاج.

وبعد إبحار طويل، وصلت أليسا مع اتباعها إلى الساحل الأفريقي ونزلت في بقعة لم يقع الاختيار عليها صدفة. وكان في هذه البقعة موقع فينيقي لانعرف اسمه الأول، فسمت أليسا هذا المكان "قرت حدشت" أي المدينة الجديدة. وما كادت قدمها تطأ الشاطئ حتى اتصلت بأهالي البلاد الأصليين واستطاعت أن تحصل من رئيسهم على أن يمنحها من الأرض مقدار جلد ثور. فأمرت الملكة بتقطيع جلد الثور إلى أشربة دقيقة وأحاطت بواسطتها ببقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها. وانتظم التبادل التجاري مع أهالي البلاد الأصليين، وأقبل سكان أوتيك، المستعمرة الفينيقية الواقعة على بعد كيلومترات من شمال قرطاج، ليزوروا مواطنيهم، بعد أن بلغتهم شهرة أليسا، وعرفوا نفوذ أصحابها" (١٣)

ثمة تعالق لافت بين حكاية أبي الحجاج الأقصري، وحكاية أليسا المرتبطة بتأسيس مملكة قرطاج، وكلاهما ينتميان إلى الموروث الثقافي، ولا يقف التعالق إزاء المجال الإبداعي الذي ينتميان إليه وهو الإبداع التقليدي فحسب؛ وإنما يمتد إلى دورهما في تشكيل الفضاء (الأقصر/ قرطاج). فالحيلة المستخدمة في السيطرة على الفضاء واحدة، ولا تتحقق إلى لمن توفرت فيه المقدرة على تأسيس الفضاء. ولذا فإنه من الواضح أن المخيلة الجمعية الإنسانية تتلاقح إبداعياً في السياقات المتشابهة.

تشبيد الطقس وممارسته (١٤)

يشكل مولد أبي الحجاج الأقصري بوصفه احتفالاً تقليدياً، جنوب مصر، نموذجاً دالاً، إذ يمكن أن يكون أحد أدوات بؤرة قراءة الأقصر ثقافياً، ويمكنه أن يوجد تفسيراً جديداً للأقصر وما يجاورها من مدن وقرى يكشف عناصر ثقافية جديدة تضاف إلى ما تُعرف به هذه المنطقة باعتبارها فضاءً ثقافياً، ويعد المولد احتفالاً الأقصر التقليدي الرئيس الذي يشارك فيها أبناء الأقصر جميعهم على تنوعهم، ويكتسب المولد شهرته من الأقصر والشيخ أبي الحجاج أيضاً، كما يتفرد عن بقية الموالد المصرية أنه لا تنهض به الطرق الصوفية؛ بل تقوم عليه العائلة الحجاجية التي ينتهي نسبها إلى أبي

الحجاج، يشاركها الاحتفال جماعات أخرى من الأقصر والقرى والمدن المحيطة بها وعدد محدود من الطرق الصوفية، ولا تختلف الاحتفالية في بنائها الشكلي عن بقية الاحتفالات المصرية التقليدية (الموالد)، فنجد فيها زيارة المقام، والتبرك به، وحلقات الذكر داخل المسجد وخارجه، وبعض الألعاب التقليدية، ومظاهر البيع والشراء، والأطعمة التقليدية التي تعد خصيصًا للاحتفالية،... إلخ. بيد أنه يتوارى خلف هذا كله نسق من مرجعيات اعتقادية، وحكايات شعبية متوارثة يتأسس عليها الاحتفال وتمنحه خصوصيته. وهنا يظهر دور الحكاية الشعبية في تكوين الاحتفال وتشبيد الطقس، وبالتالي خلق الفضاء الثقافي.

يعد مُولد أبي الحجاج الأقصري احتفالية شديدة الخصوصية، برغم ظاهره الذي يتسق مع الموالد المصرية بعامة، وهذه الخاصية جدُّ لافتة فيما يذهب إليه البحث من تأثير السرديات الشفاهية بعامة والحكاية الشعبية في تشكيل الفضاءات الثقافية، وربما يظن من يتغيا توثيق هذه الاحتفالية التقليدية، للوهلة الأولى، أنه إزاء سياق تقليدي لا يختلف كثيرًا عن غيره من الموالد المصرية بعامة، لكن استبطان هذه الاحتفالية يكشف عن فرادتها، إذ يتأسس مولد أبو الحجاج على المروية السردية الشفاهية المرتبطة بسيطرة الولي أبي الحجاج الأقصري على الأقصر، وتعد هذه المروية قوامه الرئيس، وتمنح كل من يشارك في الاحتفال دوره الذي يجب عليه القيام به، ويتطلب هذا الاستبطان معايشة دقيقة لعناصر الاحتفال ومن يقومون به، ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان توثيقه مرة واحدة، وإنما تطلب هذا الأمر توثيقه مرات عدة، كان عددها أربع مرات، أربع سنوات متتالية، وخلالها لم ينقطع الاتصال مع جل أفراد الجماعة التي تقوم على الاحتفالية، فكل دور يتطلب تفسيرًا من لدن مؤديه، إضافة إلى ضرورة اطمئنانهم إلى الباحث حتى يفسرون له ما وراء طقوس الاحتفال.

يبدأ الاحتفال بمولد أبي الحجاج في الرابع عشر من شهر شعبان، ويوافق هذا التاريخ ذكرى سيطرة أبي الحجاج على الأقصر وتملكها، وانتصاره على الراهبة التي

كانت تحكم الأقصر آنذاك. مما يتفق مع المواقيت التي تقام فيها المولد، فهي لا تقام احتفالاً بذكرى ميلاد الولي أو القديس وإنما تقام في مواعيد توافقت عليها الجماعة التقليدية، منها ما يرتبط بمواسم الحصاد، ومنها ما يرتبط بكرامة أسبغها على جماعة أو مكان، ومنها ما يتعلق بمشاهدات رمزية. ما يعنينا هنا أن هذا المولد يقام احتفاءً بمقدم أبي الحجاج إلى الأقصر، وهو ما تؤسس له سردية شفاهية يعرفها جل أهل مدينة الأقصر والمريدون الذين يشدون الرحال كل عام للمشاركة فيه.

تحفل الأقصر كلها بمولد أبي الحجاج. فلا يقتصر الاحتفال على ساحة أبي الحجاج ومسجده، بل يمتد إلى أرجاء الأقصر كافة، ويمتد الاحتفال أسبوعاً، ويوازي مواعده الاحتفال بمولد الولي عبد الرحيم القنائي بمدينة قنا. يتخذ الاحتفال بمولد أبي الحجاج طقوساً منها ما يمارس يومياً طوال أيام الاحتفال، ومنها ما يمارس في نهايته.

ومن الطقوس التي تمارس يومياً:

الدايم: طقس يعلن به بدء الاحتفال بمولد أبي الحجاج ويستمر طوال فترة المولد، وموعده بعد الانتهاء من صلاة العشاء، ويشارك كبار العائلة الحجاجية، يلتفون على هيئة دائرة بمحاذاة المقام، يبدأون بقولهم: الفاتحة؛ أي على الجميع قراءة الفاتحة عدة مرات، سواء من كان في الدائرة أم خارجها من الحاضرين، بعد ذلك يرفع الجميع أصواتهم ويشيرون بالسبابة قائلين: "الله يا دايم هو الله. رسول. رسول. رسول الله. الفاتحة". ثم يقرؤون الفاتحة. وبعدها يصفح بعضهم بعضاً.

دلائل الخيرات: تقام حضرة ذكر داخل المسجد يطلق عليها دلائل الخيرات. يشارك فيها بعض أفراد العائلة الحجاجية، يقودها شخص بعينه هو المنوط به بضبط إيقاعها، تبدأ حضرة دلائل الخيرات بقراءة الفاتحة بشكل جماعي وبصوت مرتفع، وعند الوصول إلى قوله تعالى (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" أمين) تتخذ القراءة إيقاعاً سريعاً، ثم يتلون قوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على

النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً). بعد ذلك ينشدون قصيدة " يا قطب دائرة الأفلاك خذ بيدي" التي ارتجلها، وفق الرواية الشفاهية، الشيخ أبو المعارف أحمد الشرقاوي أمام مقام أبو الحجاج. وجاء في بعض أبياتها:

يا قطب دائرة الأفلاك خذ بيدي *** وكن أمانى في الدارين يا سندي
يا لهزم القوم كن للقلب ملتفتا *** واكشف غطاءه أبا الحجاج بالمدد
فشمس أسراركم في الكون ما أفلت *** ويدر آلائكم يسمو على الأبد
أطلعت قوماً على التحقيق فاتصلوا *** وشاهدوا عزهم في حضرة الصمد
يا لبَّ لبَّ الهدى يا نور جوهره *** لأنت بالعز والأفضال معتمد
إنسان عين الرضا يا روح هيكله *** يا صاحب الخمرة الصهبا لمن يرد
أنتم شمس الهدى في الكون قاطبة *** أنتم سراج الرضا والخير والرشد
وكم وكم حازت الخيرات أقصركم *** أكرم بكم ملجأ في هذه البلد
فاعطف لخلين قد جاء لمأثركم *** راما من الحضرة السمحا شفا الكبد
وصل رب على المختار ما تليت *** يا قطب دائرة الأفلاك خذ بيدي

الموالدية: هم جماعة من المداحين يطلق عليهم (الموالدية) وهم من أهل الأفسر، وينضم إليهم تباعاً المداحين من القرى المجاورة للأفسر، ينشدون وقت المولد فقط وكل ليلة. تبدأ طقوس (الموالدية) بعد صلاة العشاء، إذ يجتمعون في الساحة بيدؤون المديح سائرين حتى المقام من خارج المسجد، ثم يتخذون مكانهم في الممر بين المسجد وقبر الملكة تريز، وليس المديح مهنتهم، وهم يستخدمون في الإنشاد الدفوف، بيدأون المديح من الساحة ويصعدون حتى المقام، مترنمين ببعض الأبيات منها:

النبي صلوا عليه صلوات الله عليه

وينال البركات كل من صلى عليه

النبي ذاك العروس ذكره يحيى النفوس

النصارى والمجوس النبي صلوا عليه.

ثم يقفون أمامه قليلا قبل أن يأخذون مكانهم المعروف وهو بين المقام وقبر الملكة تريز.

مظاهر الاحتفال في الأقصر: ثمة مظاهر احتفالية أخرى تقام خارج المسجد والساحة. فكل بيت من بيوت الأقصر بعامة والعائلة الحجاجية بخاصة في حالة تأهب واحتفال بالمولد، تستقبل بيوت العائلة الوافدين والزوار من خارج الأقصر، ولكل بيت زواره الذين اعتادوا الإقامة فيه. ولا يجوز أن تتغير هذه العادة الموروثة منذ الأجداد.

ثمة طقوس ترتبط بالليلة الكبيرة الاحتفالية واليوم الذي يليها "الدورة". وهذه الطقوس، هي التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالحكايتين التي تأسس عليهما هذا البحث، ومن ناحية ثانية تعد ممارسة هذه الطقوس إعادة إنتاج للحكاية الشعبية وممارستها. إذ يتوافد في الليلة الكبيرة جموع المحتفلين بالمولد من خارج الأقصر استعداداً للمشاركة في الدورة التي تطوف مدينة الأقصر وفق طريق معلوم. من هذه الوفود جماعة من قوص يُطلق عليهم المزمزمين، وهم الذين يرتبطون ارتباطاً مباشراً بحكاية أبي الحجاج في مدينتهم.

إنتاج الحكاية وخلق الفضاء

يجب الأخذ في الحسبان أن احتفالية مولد أبي الحجاج الأقصري تحتاج وحدها دراسة طويلة متعمقة ترصد مظاهرها ودلالاتها الرمزية نظراً لثراء هذه الدلالات

بتأويلات صوفية وعرفانية وأيضًا اجتماعية وثقافة، فما سقته من مظاهر الاحتفال إن هو إلا محض نماذج دالة على الاهتمام بممارسة الطقوس وتشرب الجماعة التقليدية لها وحرصهم عليها؛ لذا فإن البحث يسלט الضوء على الحكاية الشعبية ودورها في تشكيل الاحتفال والفضاء الثقافي، وكذلك علاقة الطقوس التي تمارس في الاحتفالية بالحكايات المرتبطة بأبي الحجاج، وهذه الحكايات ترتبط بالمزمزميين الذين يفدون من قوص، وبالذُورَة التي تجوب أرجاء المدينة في اليوم الختامي للاحتفالية.

يأتي المزمزمون إلى الأقصر للاحتفال بمولد أبي الحجاج بناء على دعوة توجه إليهم كل عام قبل بدء الاحتفال بأسبوع من قبل العائلة الحجاجية، ويتخذ توجيه الدعوة إليهم من أجل المشاركة في احتفالية مراسم خاصة. إذ تجتمع العائلة قبل بدء المولد بعد صلاة العصر وتشعر في كتابة خطابات الدعوة، ثم ينطلق من حضر هذه المراسم جماعة إلى أحد عائلات الأقصر الذي يتمثل دورهم في إيصال الدعوات إلى أصحابها.

الرحلة من قوص إلى الأقصر

يلبي المزمزمون الدعوة ويتخذون طريقهم صوب الأقصر فجر يوم الليلة الكبيرة وهي ليلة منتصف شعبان، تاريخ وصول أبو الحجاج إلى الأقصر، يتخذون الطريق الذي سلكه أبو الحجاج إلى أثناء مغادرته قوص إلى الأقصر، إنهم يعيدون رحلة أبي الحجاج كما روتها حكايتهم. يختلف بالطبع هذا الطريق عن المسار المعروف بين المدينتين^(١٥)

يقوم المزمزمون بالمرور بالبلدان التي مرَّ بها أبو الحجاج في طريقه إلى الأقصر، فينطلقون من بيت واحد منهم يسمى: أحمد النجم أحد رواد أبو الحجاج وكبير جماعة تسمى المزمزميين، وهو يحتفظ في بيته بطبلة كبيرة مصنوعة من جلد الجمل، ولا تستخدم هذه الطبلة سوى مرة واحدة كل عام أثناء مولد أبي الحجاج

فحسب. ويرمز الطبل إلى ناقة أبي الحجاج، ويتقدم الطبل جموع المزمزين في إشارة إلى توجه أبي الحجاج إلى الأقصر.

يُقرع الطبل بصوت عالٍ إيذانًا بزيارة أبي الحجاج، ويقرع ثلاث نقرات متسارعة، ويفسر المزمزمون هذا بأنه يقول: تتقدم... تتقدم... تتقدم" أي إن ناقة أبي الحجاج تتقدم صوب مستقره (الأقصر).

يخرج المزمزمون من قوص، وطوال طريقهم يقرعون الطبل باستمرار، مستقلين سيارة، وكانوا قديمًا يستخدمون الدواب (الركائب) وبخاصة الحمير؛ ومن ثم كانت الرحلة أكثر مشقة، ويقرع الطبل بالتناوب، إذ ينبغي على كل واحد من أفراد الجماعة أن يقوم بذلك، إلى أن يصلوا الأقصر ويقرع أيضًا في بيوت العائلة الحجاجية، ويحييهم كل من يمرون به، ويسألونهم الدعاء عند أبي الحجاج.

يصل المزمزمون إلى أول مكان مرَّ به أبو الحجاج، وهو بيت في آخر قوص يقدم لهم الإفطار المكون من الأرز باللبن، وهو الطعام نفسه الذي قدمه أجدادهم إلى أبي الحجاج، ويسمى البركة، ويأكل منه كافة أفراد الجماعة، ولا ينبغي أن يرفض أحد تناوله، فهو يكتسبون بركة أبي الحجاج، وجرت العادة أن يصلي صاحب البيت الفجر في هذا اليوم ويعد طعام الإفطار منتظرًا المزمزين حتى يأتون لقرع الطبل.

يوصل المزمزمون رحلتهم، يقرعون الطبل باستمرار، يمرون على قرية حجازة قبلي، والسبع عيون، والمفرجية، حتى يصل المريدون إلى قرية العياشة أو العشي، يدخلون القرية يجوبون شوارعها، يقرعون الطبل إيذانًا بمقدم أبي الحجاج، وعلى الرغم من أن جل شوارعها غير ممهدة؛ إلا أنه لا بد يمرون بها وهم يقرعون، ثم يحطون رحالهم في ساحة الشيخ أبي بكر لتناول الشاي. ويقرع الطبل في الساحة وفي الأضرحة التي تضمها ثم تقرأ الفاتحة بعد ذلك، وتحتوي هذه الساحة على أكثر من ضريح من أسرة واحدة يعتقد في ولايتهم، منهم الشيخ: قشر أبوبكر، والشيخة جبريلة أبوبكر، والشيخ محسب أبوبكر، والشيخ كشك أبوبكر، ويحتل أبناء الشيخ أبوبكر

مكانة متميزة بين أبناء القرية، ولدى السلطات المحلية، فهم يعدون من صفوة أهل المنطقة^(١٦)

يجلس المريدون هنا لتناول الشاي، والجلوس مع أحفاد الشيخ أبي بكر ومنهم الشيخ محاسب أبوبكر، الذي قال إن تاريخ الساحة يرجع إلى ١٠٠ سنة خلت، ودفن فيها الشيخ أبو بكر وأولاده. وأن الساحة يقصدها مريدون من مختلف مصر، وكذلك من الدول العربية كالسودان والسعودية يأتون إليها زيارة وتبركاً (حسب قوله)، ومن عادة المزمزين الذين يذهبون إلى مولد أبي الحجاج أن يمشروا بالساحة ويمكثون بها للاستراحة واحتساء الشاي. وتقع ساحة الشيخ أبي بكر على ضفاف النيل، وتتميز باعتدال جوها برغم الحرارة خارجها، ويخرج المزمزمون من الساحة بالطريقة التي دخلوا بها فيقرع الطبل باستمرار.

يتوجه المزمزمون بعد ذلك إلى قرية العقب، وهي القرية التي استضاف جدهم أبا الحجاج، وهم يتداولون حكاية متعلقة بأبي الحجاج في قريتهم، وهي أنه كان لدى جدهم ناقة متعثرة ولادتها، فطببها أبو الحجاج، وهم يقولون إن من عاداتهم منذ ذلك الحدث أن أي ذبيحة تتحر فريعتها لله. ويخرج معظم أهل القرية والأطفال لاستقبال المزمزين بالغناء والزغاريد، مرددين "أبو الحجاج وصل"، فهم يعتقدون أنهم يستقبلون أبا الحجاج، ويدخل المزمزمون البيوت نفسها التي حلَّ بها أبو الحجاج، يبدؤون بالبيت الرئيس الذي دخله أبو الحجاج، ثم يجوبون بقية بيوت القرية ويعودون أدرجهم إلى البيت الرئيس مرة أخرى. يقرؤون الفاتحة يتزودون بمؤونة تعينهم على مواصلة رحلتهم، ولا بد أن يقدم لهم كل بيت ما قدمه أسلافهم من طعام لأبي الحجاج، وعليهم أن يأكلوه ولا يرفضوا من شيئاً. فهم يسمون هذا بالبركة.

يقدم أهل العقب طعاماً يتكون من الخبز الشمسي، والملوخية. ويجب على المزمزميين تناول الأكل في كل بيت، ويقوم أهل البيت بإعداد الطعام انتظاراً لمجيئ المريدين، ويقال إنه الطعام نفسه الذي قُدم إلى أبي الحجاج. لاقت أنه عند تناول

الطعام يوضع الطبل في مكان مرتفع؛ إذ لا يجب أن يوضع على الأرض احتراماً لأبي الحجاج، وبعد الانتهاء من تناول الطعام يوزع المزمزمون ملاميم فضية (عملة قديمة) على سبيل البركة، ترسلها لهم العائلة الحجاجية من الأقصر، لأن المليم قديماً كان يكفي الفرد الواحد في رحلته إلى مولد أبي الحجاج ذهاباً وإياباً. كما يقرع الطبل في أرجاء كل بيت، في الغرف وحظائر المواشي حتى تحل البركة، كما يطلب أهل القرية من المزمزين أن يحصنوا أولادهم بالرقية اعتقاداً في أنهم يحملون بركة من أبي الحجاج. ومن الملاحظ أن الاحتفال بمولد أبي الحجاج واستقبال المزمزين في العقب لا يتوقف حتى لو كان في القرية مأتماً على سبيل المثال، لأنه عادة ومعنقد، وتوقفه نذير شؤم.

يتوجه المزمزمون بعد ذلك صوب مدينة الأقصر، ويدخلون إليها من الجهة التي دخل منها أبو الحجاج، فيعمدون إلى زيارة مساجد الأولياء التي في طريقهم إلى أبي الحجاج، وعندما يقتربون من ساحة أبي الحجاج يشتد قرع الطبل، ثم يدخلون إلى المقام وهم على حالهم هذا، ويخرجون منه لزيارة بيوت العائلة الحجاجية التي وجهت إليهم الدعوة، فيقرعون طبلهم في كل بيت، ويحرص أصحاب هذه البيوت على قرع الطبل بأنفسهم، إنهم يستقبلون جدهم، ويستقرون في بيت من بيوت العائلة الحجاجية ليأخذوا دورهم في صباح اليوم التالي في الدورة.

الدورة حكاية مدينة

تعد الدورة الاحتفالية الطقس الرئيس في الاحتفال بمولد أبي الحجاج، وفيها يطوف أبناء العائلة الحجاجية وأهل الأقصر جميعهم المدينة سيراً على الأقدام، مقتفين خطى الولي أبي الحجاج عندما قدّ جلد جملة وطوق المدينة وامتلكها؛ لذا فإن الدورة تبدأ نقطة انطلاقها من يسار المدينة إلى يمينها.

تبدأ الدُورَة بعد صلاة الفجر في اليوم الختامي للمولد، وذلك باحتشاد جموع المحتفلين والعائلة الحجاجية في ساحة أبي الحجاج، يشارك أفراد العائلة الحجاجية بجمال عليها هودج تمثل رمزياً أبناء الشيخ، ويأتي أبناء الأقصر بجمال وخيول مزينة موشاة، ويخرج أرباب الحرف بسيارات يضعون عليها نماذج من منتجاتهم أو يصنعونها أثناء الاحتفال، ويوزعونها على المشاركين في الاحتفال.

يتقدم الدُورَة أحد أفراد المزمزمين الذي يقوم بقرع الطبل، يقرع الطبل صباحاً في المقام إيدائاً ببدء الدُورَة، أو رمزياً بأن أبا الحجاج سيقوم الآن بجولته في المدينة، وتتطلق الدُورَة يتقدمها الطبل الذي تقول دقاته الثلاث: تتقدم... تتقدم... تتقدم. ومن خلف الطبل يسير أبناء العائلة الحجاجية متراصين إلى جوار بعضهم البعض مرتدين الملابس البيضاء وهم ينشدون قصيدة "يا قطب دائرة الأفلاك خذ بيدي"، وقصيدة البردة للبوصيري، ومن خلفهم جموع المحتفلين، يتخذون مسلك أبي الحجاج الذي طوّق به مدينة الأقصر بخيط جملة فيجوبون المدينة من شمالها إلى يمينه، تبدأ الدورة ومن المسجد وتنتهي به، وأثناء مسيرها يخرج قاطنو الأقصر في شرفات البيوت يلقون الحلوى والفول السوداني على المحتفلين، ويبدو أنه قار في وجدانهم أنهم يرحبون بأبي الحجاج نفسه.

لا شك أن الدورة هي الطقس الرئيس في احتفالية مولد أبي الحجاج الأقصري، وهي في ذاتها تحتاج دراسة منفصلة تميّط اللثام عن عناصرها التي تنسم بالثرء وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجماعة التقليدية التي ترتبط بالأقصر بعامة وبأبي الحجاج بخاصة.

الخاتمة ..

تمكنت الحكاية الشعبية متمثلة في سيرة الولي أبي الحجاج الأقصري من تشكيل فضاءات ثقافية متميزة عن التصور الرسمي للأماكن التي وردت فيها الأحداث، فالخريطة الرسمية لهذه المنطقة معمول بها إدارياً، إلا أن رؤية الجماعة للأماكن

مارقة عليها. فقد تمكنت الجماعة من رسم رؤيتها الخاصة لفضائها ثقافياً متكئة في ذلك على حكاية شعبية سردية يمكنها أن تنماس مع ما يطلق عليه قصص الأسلاف، وعلى الرغم من شعبيته إلا أنه يمثل للجماعات التي أبدعت هذه الحكايات وتعيد إنتاجها على طريقتها الخاصة عين التاريخ الرسمي؛ فهو قار في وجدانهم لا يقبلون به بديلاً.

ولقد كشف توثيق حكايتين ترتبطان بأبي الحجاج عن الكيفية التي تتواتر بها الحكاية ويعاد إنتاجها، فممارسة الحكاية طقوساً إلى جانب تواترها الشفاهي أضاف إليها وظائف جديدة تستدعي الاهتمام بالحكايات المرتبطة بالأفضية المكانية، والبحث في عمق الطقوس التقليدية علها تكشف حكايات شعبية نستطيع من خلالها الغور في أعماق الجماعة التقليدية ورصد أنساقها القيمية والثقافية.

الهوامش

- (٢) عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ٢٠٠٧)، ص ٤١٩.
- (٣) مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، أهمية الجغرافيا الثقافية في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد منناق (الكويت، عالم المعرفة، يوليو ٢٠٠٥)، ص ١٥.
- (٤) سعاد الحكيم: المعجم الصوفي - الحكمة في جذور الكلمة (بيروت، دندرة للنشر، الطبعة الأولى ١٩٨١)، ص ٧٢٣.
- (٥) طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة- معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٠)، ص ٥٣٨.
- (٦) مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، أهمية الجغرافيا الثقافية في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد منناق (الكويت، عالم المعرفة، يوليو ٢٠٠٥)، ص ١٤، ١٥.
- (٧) وثقت هذه الحكاية من جماعة من أهل الأقصر تسمى "المزمزمين"، أثناء مولد أبي الحجاج الأقصري عدة سنوات، وقد رافقت هذه الجماعة في أحد الموالد من مدينة قوص إلى الأقصر أثناء احتفالهم بمولد أبي الحجاج الأقصري.
- (٨) محمد عبده الحجاجي: العارف بالله تعالى أبو الحجاج الأقصري (القاهرة، المكتبة الشاذلية، ١٩٨٧)، ص ٢٣.
- (٩) جان كلود جارسان: ازهار وانهبهار حاضرة مصرية قوص، ترجمة: بشير السباعي (القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢)، ص ١٦٢.
- (١٠) مولد أبي الحجاج الأقصري، توثيق أحمد بهي الدين العساسي، أرشيف الجمعية المصرية للمأثورات الشعبي
- (١١) ذكر محمد عبده الحجاجي في كتابه العارف بالله تعالى أبو الحجاج الأقصري، هذه الحكاية بوصفها " قصة شعبية يتوارثها أهل الصعيد عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل، وتدور هذه القصة حول الشيخ الأقصري وما وقع بينه وبين الراهبة المسيحية تريزة بنت القيصر حين قدم إلى مدينة الأقصر وهي في إيجاز: أن هذه الراهبة المسيحية حين تنبأ لها أحد كهنتها بأن هناك شخصاً غريباً يحل بالمدينة وسوف ينتزع منها نفوذها وسلطانها، وماله من قوة شخصية وعميق إيمان، وأنها إن هي اعترضت طريقه سوف يحصل عليها غضب السماء وتحيق بها لعنتها. باتت نكدة مهمومة تخشى أن تتحقق هذه النبوءة فأصدرت التعليمات والأوامر المشددة إلى أعوانها وحراسها أن يحولوا بين أي قادم غريب ودخوله مدينتها. فاعترض هؤلاء الحراس دخول الشيخ الأقصري مدينة الأقصر ولكن الشيخ الأقصري ألح في الإقامة بالمدينة وأظهر أنه قادم من الحجاز متعباً مكثراً ولا يطمع في أكثر من الراحة من عناء السفر فعرضوا امره على الراهبة

واستصدروا أمرًا منها بالسماح له بالإقامة على أن يراقبوه ويتسقطوا أخباره. فدخل الشيخ الأقصري الأقصر وعيون الحراس ترقبه فوقفوا على أنه يداوم على الصلاة وقراءة القرآن والأذكار ليل نهار، فرفعوا أمره إلى الراهبة فرأت هذه الراهبة أنه شخص لا يخشى جانبه فتركته لعبادته وصلواته.

ثم طلب أبو الحجاج بعد ذلك من هذه الراهبة أن تسمح له بامتلاك قطعة أرض بالمدينة ما يساوي اتساعها مقدار جلد جمل يقيم عليها مدى حياته، فأجابته الراهبة إلى طلبه هذا بعقد كتابي بينها وبينه بشهود من أحد مستشاريها، وأخذ أبو الحجاج هذه المساحة من الأرض، ولما جن عليه الليل وأمن جانب الحراس أخذ في قد جلد الجمل قَدًا رقيقًا بمدية حادة حتى كون منه سيرًا طويلًا وربط أول هذا السير في أحد أعمدة معبد الأقصر، وحينما بدأ في تنفيذ فكرته هذه دبّ في نفسه الخوف مغية أن يكتشف أمره. فبدلاً من أن يتجه بهذا السير الطويل مباشرة من الجهة اليمنى لهذه المدينة اتجه ناحية الشمال ومع مطلع الفجر كان أبو الحجاج قد لف المدينة بأسرها بهذا السير الطويل، ثم خرج إلى صلاة الفجر وأعلن في الناس أنه قد ملك الأقصر بما يساوي مقدار جلد جمل طبقاً للاتفاق المبرم بينه وبين هذه الراهبة المسيحية؛ فأسقط في يد هذه الراهبة وهنا تذكرت نبوءة كاهنها، وتذكرت أيضاً أنها إن هي اعترضت طريقه سوف يحل عليها غضب السماء فوقفت سلبية الإرادة لا تملك إلا أن تعترف بالأمر الواقع وأعجبت بذكاء الشيخ الأقصري وعميق إيمانه وقوة شخصيته فأسلمت على يديه وأسلم معها العديد من أتباعها وأتباعها، وقد وقع هذا الحدث العظيم في الرابع عشر من شهر شعبان، ومن هنا كان احتفال الأقصر سنوياً بهذه الذكرى الخالدة. انظر: محمد عبده الحجاجي، العارف بالله تعالى أبو الحجاج الأقصري، ص ٤٥، ٤٦.

(١٢) فلاديمير بروب: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر، أحمد عبد الرحيم نصر، (جدة، النادي الأدبي الثقافي، الطبعة الأولى ١٩٨٩)، ص ٦٨. وانظر: فلاديمير بروب: مورفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن، سميرة بن عمو، (دمشق، شرع للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٦)، ص ٣٢.

(١٣) مادلين هورس ميدان: تاريخ قرطاج، ترجمة: إبراهيم بالش، (بيروت- باريس، منشورات عويدات، الطبعة الأولى ١٩٨١)، ص ٣٩، ٣٨.

(١٤) أعتمد في وصفي لطقوس الاحتفال على توثيق لمولد أبي الحجاج الأقصري، ثلاث سنوات متتالية، وثقت خلالها مظاهره كلها، وكنت أستدرك في كل عام ما فاتني من هذه الطقوس، وقد أودعت نسخة من هذه التسجيلات أرشيف الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.

(١٥) صحبتُ المزمزمين موثقاً رحلتهم من قوص إلى الأقصر، وكذلك دورهم في احتفالية الدورة التي تمثل أحد أهم طقوس مولد أبي الحجاج. وقد أودعت نسخة من التسجيلات أرشيف الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.

(١٦) ما يزال أحفاد الشيخ يحافظون على بهاء الأضرحة، وإكرام وفادة الغريب، ومن أهم المرويات المرتبطة بهذه الساحة، أن وزير الداخلية السابق زكي بدر كان ضابطاً صغيراً في هذه المنطقة

في بداية عمله بوزارة الداخلية، وقد تنبأت له الشیخة جبريلة أنه سیصبح وزیراً للداخلية، وبالفعل عندما أصبح وزیراً ظل یداوم على زيارتها حتى أخبرته أنه "كفاية عليك كده" أي تنبأت له أنه سیتترك منصبه، وفي هذه الساحة نجد شاهداً من الرخام مكتوب عليه أنه "في عهد الرئيس حسني مبارك، قام السيد اللواء زكي بدر وزیر الداخلية بتجديد ضريح الشیخ أبي بكر بالعیاشة في الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩، الموافق ٢٣ جمادى الأول ١٤١٠هـ". وثقت هذه الحكاية من أحفاد أسرة الشیخ أبي بكر.

المصادر والمراجع

١. جان كلود جارسان: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية (قوص)، ترجمة: بشیر السباعي، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢).
٢. سعاد الحكيم: المعجم الصوفي - الحكمة في جذور الكلمة (بيروت، دندنة للنشر، الطبعة الأولى ١٩٨١).
٣. طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة- معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٠).
٤. عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ٢٠٠٧).
٥. فلاديمير بروب: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر، أحمد عبد الرحيم نصر، (جدة، النادي الأدبي الثقافي، الطبعة الأولى ١٩٨٩).
٦. فلاديمير بروب: مورفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن، سميرة بن عمو، (دمشق، شراع للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٦).
٧. مادلين هورس ميدان: تاريخ قرطاج، ترجمة: إبراهيم بالش، (بيروت- باريس، منشورات عويدات، الطبعة الأولى ١٩٨١).
٨. مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، أهمية الجغرافيا الثقافية في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد منتاق (الكويت، عالم المعرفة، يوليو ٢٠٠٥).
٩. محمد عبده الحجاجي: العارف بالله تعالى أبو الحجاج الأقسري (القاهرة، المكتبة الشاذلية، ١٩٨٧).
١٠. مولد أبي الحجاج الأقسري، أرشيف الجمعية المصرية للمأثورات الشعبي، جمع وتوثيق: أحمد بهي الدين العساسي.